النشاط الأثري بالجزائر عقب الاستقلال

2004/1962

د.فاضل لخضر [1]

توطئة:

عرفت الفترة ما بعد الاستقلال بالجزائر استمرارية في أعمال الحفر و التنقيبات في المواقع الأثرية وكذا أعمال الصيانة و الترميم .لكن الملاحظ أن تلك الأعمال اضطلع بها باحثون فرنسيو ن لاسيما في العشر سنوات الأولى التي أعقبت الاستقلال،وذلك لأن الإطارات والكفاءات العلمية الجزائرية لم تكن كافية ومؤهلة آنذاك لهذه المهام.

لكن رغم ذلك فان مجهودات الدولة الجزائرية واهتمامها بالأبحاث والأثرية وإعادة بعث التراث الأثري استمرت بلا انقطاع منذ الس نة الأولى للاستقلال ، تجلى ذلك في الدعم المالي و التقني المتواصل لفرق البحث و الباحثين الأجانب العاملين بالمواقع الجزائرية ، وكذا الترحيب و التسهيلات الإدارية والتراخيص الممنوحة لهم لإجراء حفرياتهم وتنقيباتهم بالمواقع الأثرية الجزائرية.

يتجلى الاهتمام الجزائري أيضا بدعم البحوث الأثرية من خلال الإبقاء على الباحثين الفرنسيين المشرفين على ورشات التنقيب المفتوحة عشية الاستقلال وأولئك القائمين على تسيير الدوائر الأثرية ذات الاختصاص و المشرفة على حماية وصيانة المواقع الأثرية المصنفة أو التي يجري اكتشافها .كما أبقت السلطات الجزائرية أيضا على المدراء المحافظين للمتاحف الوطنية الذين تولوها في الفترة السابقة للاحتلال لاطمئنانها إلى كفاءاتهم وضمانا لاستمرار عملها ريثما تتوفر كوادر وطنية تتسلم مهمة تسييرها.

هذه المظاهر المتعددة وغيرها تعكس الأهمية الكبرى التي أظهرتها الس لطات الجزائرية في الاعتناء بالتراث الأثري الوطني القيم الموروث من العهد الاستعماري .ولكن الآن بعد سنوات طويلة من العمل في مجال

---

[1] أستاذ بقسم التاريخ ،جامعة معسكر

الاهتمام بالآثار الوطنية من قبل السلطات الرسمية والجهات العلمية الأكاديمية يحق لنا التساؤل ما الذي تحقق من عمل حتى الآن .وهل ما أنجز يرتقي إلى مستوى الآمال التي علقت على مشاريع البحث الوطنية المثمنة و الداعمة للتراث و البحث الأثري بالجزائر ؟ . و هل النتائج المحققة بعد نصف قرن من العمل في مجال الآثار الوطنية ترتقي في مستواها إلى ما أنجز خلال عهد الاحتلال أم أنها دونها رغم الفارق في الإمكانيات المادية .

إنه لمحاولة الإجابة على هذا الإشكال المطروح فضلت تتبع الجهود الأثرية المبذولة في الفترة ما بعد الاستقلال بالغرب الجزائري من أجل وضع حصيلة لها وتقدير مستوى الأبحاث الثرية وحجمها في مختلف ولايات الغرب الجزائري التي قام بها أفراد أو مؤسسات البحث الأثري الجزائرية الموروثة من العهد الفرنسي. كما سعيت لتحديد الإسهام الحكومي الرسمي في تمويل وتوجيه الأبحاث الأثرية التي تمس مختلف عهود التاريخ الجزائري . وقد ركزت اهتمامي في المقام الأول على الجمعية الأثرية و الجغرافية لوهران التي كانت تعد الهيئة المشرفة على متابعة الجهود الأثرية والأبحاث التاريخية على مستوى الغرب الجزائري كله منذ تأسيسها في أواخر القرن التاسع عشر.

وتيسيرا لهذه الدراسة وحتى لا أدخل بالقارئ في متاهات تقنية ومصطلحية وبعدا عن التعمق والاستقصاء في هذه البحوث ،سأتناول تاريخ هذه الإسهاما ت باقتضاب وسأوردها على شكل نقاط مقتضبة بترتيب كرونولوجي ما أمكن ذلك لتسهيل تتبعها زمنيا.

وسيلاحظ القارئ الكريم اقتصارنا في هذه الدراسة من الناحية الجغرافية على الغرب و أجزاء من الشرق الجزائريين ، ليس غمطا للمنطقة الوسطى لحقها في التغطية الأثرية ولا إهم الا لها ،ولكن لضيق الوقت ولأهمية الأعمال الأثرية المنجزة فيها و التي تحتاج دراسة مستقلة خاصة بها .وهو ما سنفعله في قابل الأيام حين تسمح الالتزامات العلمية و البيداغوجية بذلك.

1/ **الغرب الجزائري:**

-إن أول الأعمال الجديرة بالذكر و التي تسجل بعث المج هودات الأثرية بعد توقف نسبي هو استئناف الباحث كلود ابراهيمي التنقيب بموقع كولومناطة في شهري سبتمبر وأكتوبر سنة 1969في نفس المكان الذي قام فيه كادنا قبله بالحفر فيه سنة 1961 .وكان الهدف من هذه التنقيبات تحديد طبيعة صناعة حجرية قريبة الشبه من الصناعة الايبيرومغربية(الوهرانية).[1]

-خلال هذه السنة استطلع ماسكاريللو نواحي مدينة دلس وعثر على آثار قديمة رومانية و بونيقية تمثلت في قطع القرميد ، بقايا حمامات ،أقواس وغيرها .إلى جانب حوض روماني يقع على بعد ستة كيلومتر شرق المدينة،مما يؤكد على الأهمية الأثرية للمدينة وضرورة إجراء حفريات عاجلة بها.[2]

-في شهر ديسمبر م من سنة 1966 أجريت حفريات في حقل شرق واد أرهيو من قبل مكتب الأثريات القديمة بالجزائر من أجل الكشف عن عدد من التوابيت ودراسة أنماط الدفن فيها .وقد أفضت الأشغال إلى العثور على خمسة توابيت مصنوعة من الكلس .كما أجريت كذلك في الوقت نفسه تنقيبات في الحصن الروماني بمسرغين الواقعة على بعد 20كلم شرق وهران على يد فانتر.[3]

-ملاحظة تقنية لكوميناردي حول فاس حجرية نيوليتية مصقولة اكتشفت بعين الصفراء سنة1967.[4]

-دراسة آثار سيغا الرومانية مباشرة بعد الاستقلال حيث قام جماعة من التلمسانيين بأعمال تنقيب في الموقع أدت لاكتشاف عدد من الآثار القديمة تمثلت أساسا في التيجان ،جرار ،نصب نذرية ،نقوش جعل منها فرانسوا دوكريه محل دراسة نشرية.[5]

نشر الباحث دوفويلمو في هذه السنة نتائج دراسته الميدانية للمواقع الأثرية لساحل منطقتي عين تموشنت وتلمسان .حيث عاين جميع المواقع التي اشتبه في احتوائها على آثار رومانية أو بونية ،إلى جانب موقع سيغا الذي قام بحفريات سابقة به.[6]

-من ناحيته قام الباحث الفرنسي الشاب لوتيولو باحصاء لكل المواقع الرومانية بالغرب الجزائري ، في دراسة هي أقرب للوصف الأثري الدقيق للبقايا الأثرية في سهل ملاتة ،الظهرة ومازونة ،السرسو و السوقر ، ساحل الشلف ،مجموعة فرطاسة ،تاخمارت وواد التاغية،خليج أرزيو ،واد الهبرة ،سبخة وهران، واد

سيق،نواحي وهران ،حوض التافنة،تضمنت إجمالا 400موقع مرتبة جغرافيا ،موصوفة وموزعة على خريطة عامة.

وللأسف لازالت هذه الدراسة مخطوطة غير مطبوعة مما يحرم المختصين من الاستفادة منها.[7]

-تواصلت أعمال العديد من الباحثين والأثريين خلال ستينيات القرن الماضي كانت موضوع نشر في مجلة ليبيكا العلمية المتخصصة فرع الأنتربولوجيا والاثنوغرافيا وماقبل التاريخ .منها أعمال بيا ر كادنا في محطات ومواقع ما قبل التاريخ باقليم تيارت خصوصا المسح الأثري و الدراسة التنميطية للأدوات الحجرية و العظمية لموقع كوبيتوس بنواحي تيارت الراجع إلى الباليوليتي المتأخر.[8]

-وأيضا رصد لحصيلة مختلف المكتشفات الأثرية التي تحققت طيلة السنة في منطقة تيارت أساسا ة,وأهمها الأدوات المصقولة التي عثر عليها بعين طربس ،أولاد عفان، جبل مسالة ، مدينة تيارت ،تاقدمت،مزرعة دولوش ،كاف بوبكر ، عين صدوق ،كولومناطة ،كاف الدكموني ،كوبيتوس ، الكاف، كدية بوغرارة ،أولاد عزوانية ،ظهار الهادي ،ترناتن ،عين دزاريت ،جبل تاغزوت ، مع دراسة تنميطية وتزمينية للأدوات المجموعة وظروف وأماكن اكتشافها.[9]

-كما مسح أيضا مواقع ما قبل التاريخ الأخرى لاسيما كولومناطة بحثا عن أدوات الصناعة القفصية بغرض إثبات النظرية التي تؤكد على امتداد هذه الحضارة إلى الغرب الجزائري خلافا لما كان يعتقد[10]

-وأبحاث دوبايل دي هرمينس في موقع الحجارة المقدسة بقرطوفة بتيارت ،حيث استكشف الموقع في بحر سنة 1964 وجمع العديد من العينات لصناعتها الحجرية المنتمية للعاترية ،الموستيرية ، الإبيرومغربية و النيوليتي من محكات ،أدوات مصقولة ،مثاقب ،محتات ،أدوات بيفاسية ،نصيلات....[11]

-واستطلاعه أيضا لموقع اثري ماقبل تاريخي يقع بقرطوفة على بعد 2كلم شمال شرق مدينة تيارت اكتشفه كادنا قبل ذلك سنتي 1952و 1956 ، مع دراسته ميدانيا ووصف لصناعته الحجرية المؤلفة أساسا من المكاشط ، البيفاسيات، المثاقب الخناجر ذات الظهر ، المحكات ،الأدوات ذات العنق العاترية.[12]

-يضاف إلى أعماله كذلك دراسته للتسعمئة و أربعة قطعة عثر عليها أثناء حملات الاستكشاف الميداني المتعددة للمواقع التي زارها .ووصفه لصناعاتها الحجرية المتنوعة و المتداخلة ستراتيغرافيا المتضمنة لأدوات معدنية فجرية وأواني فخارية.[13]

أبدى غابرييل كامبص اهتماما بمواقع ما قبل التاريخ المنتشرة على الساحل الوهراني ،حيث عاد إلى موقع جزيرة رشقون بصحبة ريشو في سنة 1964 ثم ريموند غوغنهايم في يناير 1966 من أجل استكشافه وإجراء سبر أثري .وقد مكنته زيارته الميدانية تلك من العثور على بقايا عظمية ،أدوات حجرية مم ثلة في الحصى و الشظايا و القطع بالقزمية .مع دراسة لعادات الدفن عند ساكني هذا الموقع دراسة تشريحية للبقايا العظمية.[14]

قام كوفير بفهرسة لكل اللقى الأثرية التي وجدها أثناء سبر لموقع نيوليتي على ساحل وهران ثم إجرائه حفريات أفضت للعثور على توضع طبقي يحتوي لقى أثرية متنوعة (أدوات حجرية ،شقف فخارية،قزميات هندسية ،مستحثات.[15] .حيوانية).

-قام بيار سلامة بدراسة موثقة جدا عن الطريق بين مغنية وتاكمبريت بفضل نقوش المعالم الميلية جديدة مكتشفة لذات الطريق سمحت باعادة رسم هذا الطريق المهم تعود لعهد الأسرة السيفيرية لاسيما عهدي سيفيروس ألكسندر و إلاغابالوس.[16]

-الكشف عن العديد من القبور بواد رهيو بغليزان على إثر حفريات قامت بها فاطمة قادرية خضرة و السيد دكالي من الدائرة الأثرية .و تم ترميم فسيفساء كنيسة الشلف ووضعها عل قاعدة إسمنتية من طرف السيد قاصدي بعد أن تعرضت للضرر إبان الثورة التحريرية .كما وضع بمتحف شرشال كذلك العديد من اللوحات الفسيفسائية التي عثر عليها بالضيعة الرومانية بتنس.[17]

-أجرى فويلمو حفريات في ضريح بني رهينان بسيغا الرومانية و الذي يعتقد أنه ضريح ملكي للملوك الماصصليين يعود للقرن الثاني قبل الميلاد .كما اكتشف أيضا نقوشا قديمة بموقع بطيوة الروماني بوهران قدم عنها دراسة موجزة .[18]

أجرى الباحث هنري ايريني مارو دراسة للفسيفسائيات المسيحية المكتشفة بمدينة تنس (كارتناي الرومانية) أثناء أشغال تهيئة الملعب .[19]

-في نفس السنة رصد الباحث ألكسندر ليزين خلال رحلته العلمية الاستطلاعية الأولى إلى الجزائر في سنة 1964 بصفته خبير لدى منظمة اليونسكو ملاحظات مهمة عن الحالة الأثرية لمعالم مدينة تلمسان الإسلامية لاسيما مصلى المنصورة .و في زيارته الثانية سنة 1965 بدعوة من مصلحة المعالم القديمة قام بمعاينة منارة جامع المنصورة ورفع تقرير عن الترميمات الضرورية الواجب القيام بها عليه.[20]

-أجرى كلود براهيمي المزيد من الحفريات بموقع كولومناطة (سيدي حسني باقليم تيارت) بدعم وإشراف السلطات الرسمية.وقد أفضى البحث إلى الكشف عن مستويات أثرية جديدة تحتوي صناعة حجرية وعظمية مهمة .[21]

درس بول كورتو مدير الدائرة الأثرية الثالثة عشر نقيشة لاتينية اكتشفها بأحد ضواحي ألتافا الرومانية (أولاد ميمون-تلمسان) ،تخص شخصية بلدية من القرن الرابع الميلادي.[22]

- في تقرير لرشيد دكالي المسئول بمصلحة المعالم الأثرية كشف فيه أنه عثر بطريق المصادفة في 1ماي1967 عن نقود موحدية وحفصية علي يد أحد السكان بمدينة تنس صادرتها مصالح الدرك الوطني ، مجموعها 64قطعة نقذية منها 44ذهبية دائرية الشكل و20فضية مربعة الشكل.[23]

-تقرير آخر عن نقود إسلامية اكتشفت بتيارت قرب جبل سكونة الواقع على بعد 23 كيلومتر شرق السوقر من قبل أحد الرعاة الشباب .يتألف هذا الكنز النقدي من 47قطعة نقدية ذهبية تعود للعهد الموحدي ،المريني ، الزياني و الحمادي.[24]

-في سنة 1971 قام كل من منير بوشناقي نائب مدير مصلحة الفنون الجميلة و المعالم القديمة والسيد آيت جابر بمهمة عمل إلى ولاية غليزان لدراسة إمكانية إجراء حملة تنقيبات أثرية بعد تقارير عديدة رفعت إلى مصلحة المعالم الأثرية عن آثار رومانية تمثلت في بقايا أبنية متنوعة و خزانات مياه بمنطقة مينا القديمة[25]

-ترميم و إعادة بناء مسجد سيدي هلاوي بقرية تافسرة بتلاتة (تلمسان) من قبل السيد فضيل المهندس بمصلحة المعالم التاريخية.و بحنين (جيبساريا الرومانية) أجريت في الفترة من 3إلى 10 نوفمبر سنة 1971

خمسة أسبار أثرية باشراف السيد خليفة بغرض التعرف على الملامح العمرانية للمدينة في العصر الوسيط وترميم أسوار العهد الموحدي.[26]

-من جهته درس منير بوشناقي مشروع إجراء عدد من التنقيبات الأثرية بموقع سيغا الأثري.[27]

-على أن العمل الأثري الأهم الذي أنجز خلال سنة 1970 فهو سلسلة الحفريات الأكاديمية التي قامت بها الباحثة الجزائرية الشابة فاطمة قادرية خضرة في معالم لجدار باقليم تيارت بمساعدة من السيد رجاي عمر في الفترة مابين 6إلى 29جويلية 1970.وقد تم على إثرها الكشف عن المعلمين المتبقيين بجبل لخضر.[28]

-درس جان مارسيلي جوبير نقوشا رومانية وجدها بضواحي عين تموشنت إثر جولة استطلاعية [29].كما أجرت قادرية فاطمة دراسة تكميلية لمعالم لجدار بمنطقة تيارت التي أجرت بها عدة تنقيبات سابقا ،تضمنت فحصا لتقارير روفو عن الحفريات التي أجراها على معالم لجدار في الأربعينيات.[30]

-اكتشاف بيار كادنا للعديد من المصابيح الفخارية القديمة بتيارت ،كويزا (الحمادنة)، وغليزان (مينا) و أولاد لكرد.كما قام بفهرستها إلى جانب مختلف المصابيح الوثنية و المسيحية و الا سلامية التي وجدت بناحية تاقدمت ، الروايحة ، سيدي جربالو ، وسيدي محمد بن علي.[31]

-انطلاق حملة تنقيبات في موقع أغادير الأثري في مارس 1974 بمشاركة الباحثين دحماني ، خليفة ورسامين.وقد سمحت الأشغال بالكشف عن المسجد والأبنية الملحقة به.و ببطيوة تم الكشف في شهر أوت عن رأس تمثال برونزية تعود للعهد الروماني من قبل حارس الموقع الأثري .أما بولاية الشلف فقد عثر أحد السكان مصادفة على كنز نقذي في شهر يناير من سنة 1975 يتألف من 370 قطعة نقذية فضية موحدية.[32]

استكشاف كادنا لمنطقة باقليم تيارت في ربيع سنة1963سمحت له بالعثور على قبور بالقرب من المدينة الحديثة عند السفح الجنوبي الشرقي لجبل غزول.[33]

-عثور الباحث مارسيل كوفي في صيف سنة 1966على خزف قديم بالقرب من قرية تلاثة في ناحية بني بهدل ياقليم تلمسان .[34]

-من ناحيته أفضت الجولة الأثرية على الساحل الوهراني (الغربي) التي قام بها السيد روبير ماسون مدير ومحافظ متحف وهران انطلاقا من ساحل الشلف سمحت له برصد العديد من الموقع الأثرية القديمة الجديدة التي لم ترد في الأطلس الأثري لغزيل.حيث اكتشف بها معالم وبقايا أثرية متنوعة كالنقوش الليبية ،الشقف الفخارية ، الجثوات،بقايا مصابيح فخارية ر ومانية،نقوذ رومانية تعود لعهد الإمبراطورين كومودوس، انطونينوس التقي ووالدته فوستينا، وذلك في كل من الأندلسيات ،كويزا، مرسى الحجاج[35]

-تقرير أثري حول موقع بربري – روماني تعرف عليه كادنا لأول مرة و قام بزيارة سريعة له ونبه فيه المسؤولين عن الدائرة الأثرية لأهميته وضرورة إجراء حفريات استطلاعية سريعة ، خاصة بعد أن سجل العثور فيه على رسوم ونقوش ليبية وحجارة منحوتة رومانية بأعداد معتبرة[36]

-تقرير سنوي فيه إشارةحول المعالم الجنزية بمنطقة فرندة والتنقيبات التي أجريت بها ما بين سنوات 1967-1970-التي تمت الإشارة إليها سابقا- بإشراف قادرية فاطمة وشكلت محور أطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة اكس بروفانس الفرنسية سنة1974.[37]

-في إطار التعاون الجزائري الألماني أطاقت حملة تنقيبات في شهر أوت سنة 1977 بموقع سيغا – تاكمبريت وضريح بني رهينان الذي يشرف عليه و الذي تم إزاحة الركام عن جزء منه.[38]

كما تحققت اكتشافات متعددة في السنوات التي سبقت كشهري أفريل 1969 ومارس 1970 حيث عثر على نصب جنزية بونيقية الطبع .وأجريت عدة أسبار أثرية على عدة مواقع .الأول قرب الجدار الذي يعود للعهد الروماني و الثاني عند المكان الذي يرجح أنه ضم معبد ساتورنوس.[39]

2/الشرق الجزائري :

بالشرق الجزائري وكان للإنشاءات المائية الرومانية ونظام الري الذي أقامه الرومان بمدينة تبسة و ماجاورها نصيب أكبر من الدراسة والاهتمام من قبل جان بريينت التي أفرد لها صفحات طويلة في كتابه عن المنشآت الرومانية المائية بالشرق الجزائري . ومما بينته هذه الدراسة فيما يخص منطقة تبسة أهمية أجهزة الري و السقاية التي أقامها الرومان بها و اتساعها وتعقدها مما يعكس الأهمية الزراعية التي كانت تمثلها في أعينهم[40]

لا تفوتنا الاشارة هنا لما قام به الباحث الفرنسي روبير لوكمان من ثلاث حملات تنقيبي ة بمدرج تبسة الروماني الواقع على الضفة الغربية لواد زعرور، وذلك خلال سنوات مابين 1965-1966 استغرقت كل واحدة منها شهرا ونصف، وعدت كتكملة للعمل الذي بدأه دوروش في مطلع الخمسينيات . وقد شملت هذه الأبحاث الدراسة المعمارية للمدرج بأبعاده و هندسته وتفصيلاته ونق وشه،مع معاينة المواد الأثرية التي كشفت عنها التنقيبات كالمصابيح، والأواني الفخارية المتنوعة . و ركزت هذه الحفريات بصورة أساسية على تتبع التطورات التي مر بها المدرج الروماني منذ تأسيسه حتى نهاية العصر القديم .ووضع لوكمان خلاصتها في تقرير ضمنه كل الخطوات التي سارت عليها حملة التنقيبات . فبدأ بوضع تقييم لحالة الآثار قبل انطلاق الأعمال، ثم انتقل مباشرة إلى استعراض وبدقة شديدة مراحل عمليات الحفر والإزالة في كل جزء من أجزاء المدرج ، مشيرا في أثناء ذلك إلى المشاكل التي أعاقت التنقيب في المعلم ومنها المساكن التي بنيت بداخله و التي ألحقت أضرارا ببعض الأجزاء الداخلية للمدرج، ليختم هذه الحصيلة بجملة من النتائج[41]

وخلال شهري سبتمبر وأكتوبر من سنة 1966 استأنفت الحفريات من جديد في المدرج، وقد تكفل السيد لوكمان بنشر تقاريرها بمجلة الآثار الجزائرية . وقد شارك في هذه الحملة ب ول ألبير فيفريي، منير بوشناقي الذي ساعده في إدارة التنقيبات، داجنس من المدرسة الفرنسية لروما ، فريدوي الأستاذ المساعد بجامعة السربون و الرسام داونيك الذي قام بالرسومات و الرفع الطوبوغرافي ،و طلبة كلية الآداب بالعاصمة. وبفضل تضافر الجهود صارت الواجهة الخارج ية الشمالية الشرقية جد واضحة، حيث لوحظ العديد من التعديلات التي أجريت عليها سابقا ،أحدثها تبليط بني بالحجارة الضخمة الكلسية المنحوتة التي لا يمكن أن تعود لما قبل القرن الرابع الميلادي.و بالنسبة للرواق الواقع على المحور الكبير نحو الغرب و الممران المجانبان له فيوجدان في طور الكشف.أما في الداخل فالتنقيب في المستويات السكنية الثلاثة لا يزال مستمرا . وأقدم هذه المستويات يعود على الأرجح إلى العهد البيزنطي، والآخران يعودان ربما إلى العصر الوسيط أو الحديث لأن تاريخهما لم يحدد بدقة إلى الآن . هذا وقد أعيد إحياء التنقيبات التي كان أجراها سا بقا المحافظ السابق للمتحف السيد سيري دوروش بالكنيسة لاسيما حول المعبد المثلث وداخله ، وذلك للسماح للسيد

كريسترن من المعهد الأثري الألماني والسيد مولر للقيام برفع هندسي والقيام بمقاطع معينة وكاملة لهذا المعلم الذي يكتسي أهمية كبرى بالنسبة للعمارة المسيحية بإفريقيا. [42]

في مجال الدراسات حول ماقبل تاريخ تبسة، نشير لنتائج الأبحاث الميدانية لكوليت روبي حول استخدام الصفائح الدرعية للسلاحف من قبل أقوام ما قبل التاريخ في الزينة وصناعة التمائم والتعاويذ السحرية خلال العصر النيوليتي ، التي قادتها إلى عدد من أبرز المواقع القفصية بالمنطقة .النتائج المحققة دلت على انتشار واسع لاستخدام هذه الصفائح عند القفصيين في منطقة تبسة لاسيما بناحية الكيفان ورليلاي و الداموس الأحمر عند منحدرات جبل أنوال المحيط بتبسة من الجنوب الغربي .ليس هذا فحسب بل ثبت بعد دراسة مخبرية للعينات المستقاة من هذه المواقع على تفرد قفصيو المنطقة وبراعتهم في صناعة الحلي منها ،وعلى الأغراض السحرية و الوقائية من الأرواح الشريرة المتوخاة من وراء هذه التمائم[43]

استرعت بقايا الكنائس المسيحية القديمة لاسيما كنيسة تبسة ومرسط هنشير الرهبان وملحقاتها انتباه جورجن كريسترن من المعهد الأثري الألماني الذي درسها من الناحية الهندسية و الزخرفية ، معتبرا إياها أهم مركب مسيحي متكامل موجود بشمال إفريقيا . وقد شدد هذا الباحث على الخصائص الهندسية وعناصر الزخرفة المميزة التي تنفرد بها لاسيما ما يتعلق بالأعمدة الكورنثية و المعبد المثلث أو ما اصطلح عليه بأبرشية غابنيلا. [44]

كما استمرت الأعمال الميدانية والحفر في المواقع العائدة لما قبل التاريخ بوتيرة أسرع مما كانت عليه قبيل الاستقلال ، لعل أهمها البحث الميداني لجان موريل الذي يعد من الدراسات المهمة التي حاول فيها طرح نظرية جديدة حول النظام الغذائي و المعيشي للأقوام القفصية التي استوطنت منطقة الشرق الجزائري تخالف النظرة التقليدية التي دأب الباحثون قبله على تبنيها والتي جعلت من سكان المنطقة أكلة الحلزونات من الطراز الأول.وقد دعم رأيه بدراسة إحصائية تحليلية للبقايا الغذائية بموقع الماء الأبيض برهن من خلالها بشكل قاطع على أن قفصيو منطقة تبسة على الأقل تبنوا نظاما غذائيا قائما أساسا على المواد النباتية ، وأن قواقع

الحلزونات والحيوانات الصغيرة والمتوسطة لم تكن سوى نظاما غذائيا تكميليا .كما أثبت أن هذا النظام الغذائي القريب من العصر الباليوليتي كان شائعا في كل المواقع التبسية حسب دراسة مقارنة مع بقايا مواضع أخرى.[45]

كذلك ظهرت في سنة 1975 نتائج دراسة ميدانية مشتركة لعدد من الباحثين المتخصصين في الأنتروبولوجيا وماقبل التاريخ منهم لوبيل، بالي، غوتيي ، أوماسيب كانت بمثا بة النتائج الأولية للبحوث الميدانية و الحفريات التي مست حلزونيات منطقتي الشريعة وثليجان ما بين سنتي 1972-1973 . ومما خلصت إليه مجموع هذه الأعمال المتكاملة هو إثبات تحول جذري للمناخ في هذه المنطقة في منتصف الألف العاشر قبل الوقت الحاضر نحو مناخ صحراوي أكثر أمطارا وبرودة من المناخ الحالي حسبما تدل عليه رواسب موقع عين المستحية، ثم تحول آخر في بداية الألف السابع قبل الميلاد حسب البقايا الحيوانية والقواقع البرية التي تدل على بيئة براري تسودها الحشائش مع نقص في عدد الحيوانات.كما رصدت الأبحاث تطورات في الأدوات الحجرية المنتمية للقفصية العليا بتأثير البيئة المناخية. وأخيرا تبين على أن المواقع السكنية لم تكن مأهولة طيلة العام ،كما اتبع السكان نظاما دوريا في سكنى المواقع وأن النظام المعيشي للأقوام القفصية القائم على عناصر غذائية يعد نظاما ناجحا مما يفسر تأخر دخول الاقتصاد النيوليتي لبلاد المغرب القديم.[46]

وخصت ماري لويز إنيزان بدراسة مفصلة الأدوات الحجرية القفصية المطلية بالمغرة الحمراء في معظم المواقع القفصية الجزائرية والتونسية ، ونشرت نتائج أعمالها في مقال بمجلة لأنتروبولوجيا .وقد ركزت بشكل خاص على الأدوات التي عثرت عليها برماديات منطقة تبسة وبينت انفرادها ببعض الخصائص المحلية التي تميزها عن غيرها من المواقع المشابهة الأخرى.[47]

و أثناء أشغال توسيع مدرسة الدكتور سعدان الواقعة خارج السور البيزنطي على مقربة من طريق قسنطينة، عثر على قبور مغطاة بلوحات قرميدية وتوابي ت . وفور إعلامها تدخلت مديرية الآثار لدى السلطات المحلية بغرض وقف الأعمال الجارية وتنظيم حملة حفريات إنقاذية أشرفت عليها الآنسة فاطمة قادرية خضرة طيلة شهر ماي من

سنة1978 . وهذه الحفريات أسفرت عن اكتشاف مقبرة مسيحية احتوت علاوة على التوابيت ،على قبور شهداء مسيحيين تزينها لوحات فسيفسائية مع ملاحظة أن معظم القبور تعلوها نقوش جنزية مسيحية .وزيادة على ذلك أجريت طيلة شهر ماي من سنة 1978 أعمال بحث بمنطقة ذراع الغودار الواقعة على بعد كيلومتر ونصف شمال مقبرة الدكتور سعدان .في هذه المنطقة الثانية عثر على مقبرة في شهر مارس سنة1979 بها توابيت مغطاة وقبور شهداء مسيحيين ونقوش جنزية مسيحية كشفت عنها التنقيبات .ومن المحتمل أن مقبرة الدكتور سعدان وذراع الغودار تنتميان لمجموعة جنزية مسيحية متأخرة زمنيا تقع شمال غرب تبسة القديمة[48]

ظهرت أيضا في هذه السنة جملة من التقارير المهمة المتعلقة بحالة الآثار ، سمحت آنذاك للجهات المعنية التي تسعى لوضع مخطط تجديد عمراني للمدينة بتحديد مواقع الاكتشافات الجديدة كالمساكن الرومانية ، اللوحات الفسيفسائية ، المقابر وغيرها من المنشآت ، نذكر ذلك المتعلق بالعثور في 3 ماي 1976 عثر بوسط المديرة إلى الغرب من السور البيزنطي في موقع تابع للبلدية على مقبرة مسيحية كبيرة تعود للقرنين الرابع و الخامس الميلاديين ، وهي تمتد أسفل كل من سكنات مجهزة تابعة لها ومستودعات تابعة لشركة النقل البري و قد كشف عن وجود هذه المقبرة خلال أشغال بناء مدرسة .كما عثر أيضا على فسيفساء هندسية أبعادها ستة أمتار على أربعة أمتار قبالة منشأة تعليمية بشارع الأمير عبد القادر.[49]

لقد استأنف موريل البحث في الصناعة الحجرية العائدة للقفصية العليا بموقع الماء الأبيض الذي يعود تاريخه حسب التقويم بالكربون المشع إلى النصف الثاني من الألف السادس قبل الميلاد . ومن النتائج المهمة التي حققها هذا البحث هو رصد ذلك التنوع الكبير في الأدوات الحجرية بمنطقة تبسة – قفصة لدرجة ظهور صناعات محلية مختلفة عن بعضها البعض كلية رغم القرب الجغرافي الشديد بينها .كذلك لوحظ تطور محسوس لكن مستتر تمثل في ظهور نوع جديد من المثاقب و المحتات، لكن عموما تم إثبات الخصائص العامة المميزة للقفصية العليا بتبسة[50]

من الدراسات الأثرية الحديثة كذلك ما قام به أحد طلبة معهد الآثار بالجزائر من إنجاز بحث ميداني مهم عن بازينات جبل مستيري المحيط بتبسة ، حيث وضع موجزا لفترة ما قبل التاريخ بتبسة . ثم أجرى

معاينة ميدانية للأضرحة البازينية من الخارج والداخل ووصف ملحقاتها وأجزائها مثل الأروقة والغرف الجنزية والأثاث الموجود بها .كما أشار إلى أن أعمال الحفر العشوائية التي قام بها لصوص المقابر بحثا عن الكنوز أضرت كثيرا بالموقع.و توصل في النهاية إلى أن هذه المعالم الفجرية تعد من أقدم ما خلفه الإنسان المغربي القديم في مجال المنشآت الدينية قبيل العصر التاريخي[51].

بعد الدليل الأول الذي أصدره محافظ متحف تبسة سيري دوروش في سنة 1954،شهدت سنة 1999 إصدار ثاني دليل سياحي لمتحف تبسة ومعالمها الأثرية باشراف علي سلطاني رئيس الدائرة الأثرية لتبسة و محافظ المتحف آنذاك وتحت إشراف الوكالة الوطنية للآثار و المعالم والنصب التاريخية سابقا. تضمن قسمه الأول نبذة مختصرة عن تاريخ المدينة منذ العصور القديمة حتى وقتنا الحاضر.والقسم الثاني شمل إحصاءا لمعالم المدينة العائدة إلى العصور المختلفة مع التركيز على المعالم الرومانية و البيزنطية كالمدرج الروماني، قوس النصر،القصر القديم ،الكنيسة الكبرى والسور البيزنطي.أما القسم الثالث من الدليل فقد خصصه للحديث بالتفصيل عن متحف المدينة الذي يحتضنه معبد مينرفومعروضاته الغنية من أفاريز وتيجان وتماثيل وأعمدة وأواني و مصابيح فخارية و لوحات فسيفسائية.[52]

وفي أبريل من سنة 2009 احتضنت جامعة تبسة في الفترة مابين 25-29 أبريل ملتقى دولي حول الآثار بالاشتراك مع عدد من الجامعات الأجنبية ومراكز البحث الوطنية والأجنبيج و الهيئات الرسمية.وقد كان تاريخ تبسة وآثارها حاضرا بقوة في أعمال الملتقى من خلال عدد من المداخلات التي تناول فيها أصحابها جوانب مختلفة من تاريخ المنطقة ، منها مداخلة حول المباني العمومية لتبسه من خلال النقوش للأستاذة خديجة منصوري حاولت من خلالها إحصاء مع ا لم المدينة العمومية من خلال النقوش التي تحمل عبارات تشير إلى ممولي بنائها أو ترميمها أو تجديدها. ، مع الإشارة إلى مختلف المظاهر التي تطبع بنائها.[53]

خـلاصـة:

إن هذا المسح السريع لأهم التنقيبات و البحوث الأثرية التي شهدتها منطقي الشرق و الغرب الجزائريين مرذ ستينيات و سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي إلى مطلع الألفية الجديدة تقودنا إلى عدد من الملاحظات الآتية:

-أن جل هذه الأعمال اضطلع بها على الأغلب أثريون وباحثون أجانب لاسيما الفرنسيون منهم نظرا لمعرفتهم التامة وخبرتهم السابقة بالمجال الأثري با لجزائر .لكن هذا لا يقدح أبدا في البعد الوطني لها لأنها كانت بتكليف و إشراف جزائريين ،وهؤلاء الباحثون ليسوا سوى متعاونين معها وأعمالهم كانت في النهاية زيادة في الرصيد الأثري للجزائر.

-إن طلائع الباحثين الأثريين الجزائريين دخلت الميدان الأثري الوطني في مدة لم تتجاوز عقدا من الزمن على تاريخ الاستقلال ، وقادت أولى الحفريات بكفاءة وإتقان لا تقل عن نظرائهم الأجانب ،نذكر منها فاطمة قادرية خضرة ،منير بوشناقي ،سيد أحمد بغلي ، سعيد دحماني، رشيد دكالي.......إلخ.

– أنه رغم المجهودات الكبيرة المبذولة من قبل السلطات الجزائرية بعد الاستقلال وإلى الآن في مجال دعم البحوث الأثرية والإمكانات المادية المعتبرة المسخرة لهذا الغرض ، إلا أننا نلاحظ أن ما تحقق من نتائج و تقدم ما يزال دون المستوى المطلوب إذا ما قورن بالنتائج التي تحققت في نفس المدة الزمنية في العهد الاستعماري و بإمكانيات أقل .خاصة ونحن نعلم أن الكثير من ورشات التنقيب ال تي افتتحت في ذلك العهد تمت بموارد مالية ضئيلة جدا مقارنة بالنتائج التي أسفرت عنها تلك الحفريات ، والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، مع ذلك لم يثني ذلك القائمين على هذه المشاريع من مواصلة العمل .ونحن كجزائريين مسؤولين عن تاريخنا الوطني أولى بذلك منهم.

-إننا اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى لمراجعة إستراتيجية إدارة المجال الأثري الجزائري في كل فروعه(تجديد حماية وصيانة التراث الأثري ،تحيين المنظومة القانونية المؤطرة لتسيير واستغلال المعالم الأثرية ،إعادة نظر جذرية في طرق و مناهج أدارة التنقيبات الأثرية.)

الهوامش:

---

[1] Brahimi(C),Encore des fouilles à Columnata, B.S.G.A.O,9,1970,pp7-12.
[2]Mascarello(A),Notes archéologiques sur Dellys, B.S.G.A.O,9,1970,pp13-17.
[3]Découverte d'une nécropole à basse époque à Oued Riou, B.S.G.A.O,7,1968,pp1-5. ;Ventre, Fouilles du fort romain de Misserghin B.S.G.A.O,7,1968,pp12-14.
[4]Cominardi(F),Note sur une hachette polie d'Ain Sefra, B.S.G.A.O,15,1976,pp23-26.
[5]Decret(F),contribution à la recherche archéologique de Siga, B.S.G.A.O,17,1977-78,pp36-54.
[6]Vuillemot(G), Reconnaissance aux échelles puniques d'Oranie, Musée Rolin,Autun,1965.
[7]Lethieulleux(J),Les sites romains en Oranie, Notes manuscrites,1982.
[8]Cadenat(P), Sondage au Cubitus ,station épipaléolthique des environs de Tiaret,Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XI,1963,pp75-122.
[9]Cadenat(P),Notes de préhistoire tiartienne , Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XII,1964,pp181-224.
[10]Cadenat(P),Vue nouvelles sur les industries de Columnata , Libyca-Anthropologie-Préhistoire- Ethnographie,XIV,1966,pp189-207.
[11]De Bayle des Hermens(R),Les industries préhistoriques de la station de la pierre à sacrifices .Tiaret, Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XII,1964,pp71-95.
[12] De Bayle des Hermens(R),L'Atérien des vignes Deloche à Guertoufa .Tiaret, Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XIII,1965,pp59-81.
[13]De Bayle des Hermens(R),La station néolithique du piton sud du col de Guertoufa .Tiaret-Algérie, Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XVI,1966,pp209-222.
[14] Camps(G),Le gisement de Rachgoun.Oranie, Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XIV,1966,pp161-188.
[15] Couvert(M),Inventaire des documents archéologiques provenant des du gisement des gevrets-Oran, Libyca-Anthropologie-Préhistoire-Ethnographie,XVIII,1970,pp35-44.

Salama(P),La voie romaine de la vallée de la Tafna ,B.A.A, 2,1966-67,p183-217. [16]
Baghli (S-A),Recherches et travaux , B.A.A, 2,1966-67,p3.[17]
Vuillemot(G),Fouilles du mausolée de Beni Rhenane en Oranie,C.R.A.I,1964,pp71-95.;Id., Les sculptures primitives de Saint Leu (Portus Magnus)Oran.Archivo Espagnol de archeologia,XXXVI,1963,pp155-162. [18]
Marrou(H-I),Mosaïques chrétiennes de Tenes, B.A.A, 1,1962-65,pp227-233. [19]
Lezine(A),Notes d'archéologie Tlémcenienne , B.A.A, 1,1962-65 ,pp236-275. [20]
Brahimi(C),Encore des fouilles àColumnata,Revue d'histoire et de civilisation du Maghreb,9,1970,pp7-12. [21]
Courtot(P),Epitaphe d'un princeps d'Altava, B.A.A, 3,1968 ,pp337-341.[22]
Dokali(R), Monnaies Almohades et Hafsides découvertes à Tenes, B.A.A, 3,1968,pp369-391. [23]
Dokali(R), Notes sur les monnaies musulmanes de Tiaret, B.A.A, 4,1970,pp445-459 [24]
Recherches et travaux,B.A.A,5,1971-74,p12. [25]
Ibid.,p13. [26]
Ibid.,p14 [27]
Ibid.,p19 [28]

Marcillet –Jaubert(J),Etudes d'inscriptions et bas –reliefs d'AinTemouchent,B.A.A, VII,Fasc1,1977-79,pp87-102.[29]

Recherches et travaux,B.A.A,1,1977-79,p227. [30]

Cadenat(P),Sur quelques lampes antiques de l'ouest Oranais,B.A.A,7,1977-79,pp289-316. [31]

Recherches et travaux,B.A.A,6,1975-76,pp7-8. [32]

Cadenat(P),Curuieuse tombe à étage dans une nécropole antique de Tiaret,Ant.Afr,3,1969,pp225-236. [33]

Couvet(M),Les faïences antiques anciens du Tléta,B.S.G.A.O, 5,1966,pp23-28. [34]

Mason (R),Nouvelles inscriptions libyques à Quiza , B.S.G.A.O, 6,1967,p20. [35]

Cadenat(P), Rouahia.site berbero-romain inédit dans la commune de Keria(Tiaret-Algérie) ,Ant.Afr,12,1978,pp241-252. [36]

Bouchenaki (M),Récentes recherches et études de l'antiquité en Algérie,Ant.Afr,15,1980, p23,pp9-28 [37]

Ibid., p24. [39]

[40] Birebent (J),Aquae Romanae. Recherches d' hydrauliques romaines dans l'est algérien ,Alger, 1964.

Lequement(R)," Fouilles de l'amphithéâtre de Tébessa(1965-1966) ", B.A.A, 2, 1966-1967,pp107-122. [41]

Fevrier(P-A), "Recherches archéologiques en Algérie(1964-1967) " ,C.R.A.I, II,B.A.A, 1967,pp92-109.Baghli(S-A), Fevrier(P-A)," Recherches et travaux(1966-1967) " ,pp1-9.8-1967196 [42]

[43] Roubet (C), "Les pendeloques en plaques dermiques de tortue dans le néolithique de l'Afrique du nord", Libyca. Préhistoire- Ethnographie, XIV,1966,pp233-259.

[44] Christern(J), " Il complesso cristiano di Tebessa .Architettura e decorazione », Estratto da corsi di cultura sulla'arte ravennate e bizantina", Ravenna , 1970, pp103-117.

[45] Morel (J.), " La faune de l'escargotière de Dra-Mta-El-Ma-El-Abiod (Sud-algérien) .Ce qu'elle nous apprend de l'alimentation et des conditions des populations du Capsien supérieur", L'anthropologie ,74,1974,N°2,pp299-320.

[46] Lubell(D) et Autres, " The préhistoric cultural ecology of Capsien escargotieres", Libyca.Préhistoire-Ethnographie,XXIII,1975,pp43-122.

[47] Inizan(M-L) , "Outils lithiques capsiens ocrés" , L'Anthropologie, tome 80, 1976 ,N°1,pp39-64.

[48] Khadra(F-K), " Recherches et travaux en 1977-1979", B.A.A,VII, 1977-1979,pp9-28. [48]

[49] De Pierre(M-C), Tébessa. Notice manuscrite,1977.

[50] Morel (J.), "L'industrie lithique de l'escargotière de Dra-Mta-El-Ma-El-Abiod dans le sud est algérien. Sa composition, son évolution", L'Anthropologie, L'Anthropologie,82,N°3,1978,pp335-372.

[51] إفراح محمد عبد الرؤوف، بازينات جبل مستيري بتبسة ، مذكرة نهاية ليسانس في علم آثار ما قبل التاريخ، معهد الآثار، جامعة الجزائر ،1994.

علي سلطاني، تبسة. مرشد عام للمتحف الوكالة الوطنية للآثار والمعالم و النصب التاريخية، تبسة، مؤسسة الطبع الجديدة،1999.

[53] Mansouri(Kh), "Les monuments publics de Theveste à travers les inscriptions". Colloque international sur l'archéologie, Tebessa, Algérie (25-29 Avril 2009).

53